وخيال جبرا في غناه ورحابته قادر على صنع الموضوع الجمالي وإنتاجه . لكن هذا الفضاء الجمالي المغلق الذي أنتجه الخيال الروائي يهتز عندما نقارنه بنموذج خارجه ، عندما نشده باتجاه الواقع ، وعندئذ يحتاج الخيال الروائي إلى كلمة أخرى تلحق به دون أن تلغيه وهي : الوهم الروائي . وفي ديالكتيك الوهم والخيال نتذوق المتعة الجمالية في « السفينة » ونبحث عن الفلسطيني الواقعي دون أن نجده لأن فلسطيني « السفينة » هو علاقة فنية في علاقات فنية أخرى .

البحث عن وليد مسعود ـ المطلق وبطل الذاكرة المثقوبة

يستعير جبرا في روايته الأخيرة أبطاله السابقين : « أمين » و« جميل » و« وديع » ، يستعيرهم ويمزج بينهم فيخلق بطلا ذهنيا ـ تركيبيا جديدا اسمه « وليد مسعود » . يتابع جبرا موضوعة رواياته فيعيد بناء ما بنى ، ويدفع البناء الى الاتقان والابهار ، يستعيد « سفينة وديع عساف » ويرسو بها في حديقة وارفة الظلال ، حديقة ـ مثال ، تجسد واقع طبقة وفكرها ، وتشخص واقع الطبقة في أوهامها وحقائقها وحدودها المكنة والمجردة .

« البحث عن وليد مسعود » بحث طبقة عن هويتها الضائعة وانتمائها المفقود ، فتعثر عليه في السديم ، ثم يتطاول عجزها فيستبدل فكرها الواقع بالسديم ، ويقيم فيه مملكة البطولة المفقودة والنقاء المستحيل . ويمتد الصوت الفلسطيني ويعلو ويمارس البطولة في زمن نسي معنى البطولة ، يمتد الصوت ويعلو ويهتك صمت الواقع وعجزه ، ويظهر العجز عاريا . وفي حقول البطولة والعجز والعراء تطلق الطبقات الساقطة خيالها في السديم باحثة عن بطولة مستحيلة . في « البحث عن وليد مسعود » يبدو الزمان واضحا ثم يغترب لأنه يجهل طبيعة عصره فيتيه في « عوالم النفس البشرية » ، ويفصح المكان عن هويته ثم يتزايل في سيولة الذاكرة . يجهل السديم دلالة الزمان والمكان ولا يعرف إلا البطل المطلق .

« في البحث عن وليد مسعود » تعيش عالم « بطل فلسطيني » صنعته الذاكرة في حركتها الانسيابية المتدفقة التي تتبع زمانها الخاص وتكسر منطق الزمان الفيزيائي . « وليد مسعود » بطل ضيعته الذاكرة في حركتها الدائرية التي ترفض مفهوم البداية والنهاية ، تبدأ من حيث تشاء وتنتهي حيثما تشاء ، تحج إلى الماضي في زرقته الصوفية ، وتحوم قليلا في الحاضر لتلقي نفسها بعد قليل في أحضان « الغيب » والمستقبل . وفي النهاية يتحدد « وليد » في لعبة الذاكرة وهوسها ببناء العلاقات الفنية التي تقترب من الواقع تارة وتنفيه تارة أخرى . ومهما اقترب « وليد » في حركته من الواقع فإنه يظل رهينة للعبة الذاكرة لأنه ليس بطلا واقعيا بل تركيبا ذهنيا . تصنعه الذاكرة وتتوق إليه النفس دون أن تصله لأنه البطل ـ الحلم .

بطل فلسطيني الأصول ، يتحدى زمانه ويتعملق فيجاوز المعقول ويصبح رمزا . إنه المطلق الذي يختفي دون أن ينتهي والذي ينتهي دون أن يختفي لأنه دائم الحضور . إنه الكلي والشامل الذي عرف جماع المعرفة والفن والفلسفة والتجربة الحسية . مطلق متعال لأنه لا يعرف إلا الجمال فكيف يتحدد هذا الصوفي الغامض ؟. كيف يتحدد وليد مسعود ؟.

نقول : إنه الكامل الذي يتحرك في مملكة الجمال . والمثال الذي يعيش في « كهف » لا ترقى إليه